

الأبعاد اليوتوبية في كتابات عبد الوهّاب المسيري للطفل - قراءة تأويلية -
Utopian Dimensions in Abdel Wahab Al-Mesiri's Writings for children - An Interpretive Reading -

سعاد صابية^{1*}، ربيعة حنيش²

²⁻¹ المركز الجامعي مرسلبي عبد الله - تيبازة (الجزائر).

تاريخ الاستلام : 01 أوت 2024 ؛ تاريخ المراجعة : 15 أكتوبر 2024 ؛ تاريخ القبول : 30 ديسمبر 2024

ملخص:

أدب الطفل قصة وشعرا ومسرحا ينطوي على أبعاد، يندرج معظمها ضمن القيمي التربوي والديني والاجتماعي والأخلاقي والنفسي والفكري، لا سيما القصة، لذلك كان أدبا وظائفيا بالدرجة الأولى، أما عنصر التسلية فهو وجهه الظاهر. أدب يسعى إلى غرس الفضيلة في نفس الطفل، والمحافظة على سلامة فطرته، ومنه أهميته البالغة في صناعة رجل الغد؛ أيّا كان موقعه، ومهما كانت مهامه ومسؤولياته، وهو ما يدعو إلى منحه الأولوية والاهتمام، ومع ذلك لم يحظ بالعناية الكافية في الساحة الأدبية العربية، إلا قليلا. ومن تلك النماذج التي أولته الاهتمام المفكر عبد الوهّاب المسيري، الذي التفت إلى الطفل، وكتب له بقدر عال من العمق، باعتباره جزءا هاما من مشروعه الحضاري العربي الإسلامي. إذ نجده ركّز في سلسلته "حكايات هذا الزمان" ومن خلال قصة "معركة.. كبيرة... صغيرة" على البناء الفكري للطفل أكثر من غيره، ورسم معالم التفكير اليوتوبي الإنساني.

الكلمات المفتاحية: أدب الطفل؛ اليوتوبيا؛ الفضيلة؛ الطفل؛ عبد الوهّاب المسيري.

Abstract:

Children's literature is based on values, educational, religious, social, moral, psychological and intellectual, which makes it primarily functional literature. Despite the overwhelming element of entertainment; It seeks to instill virtue in the child, which is of great importance in shaping the man of the future; Whatever his position, and whatever his tasks and responsibilities, what gave him priority, and yet he did not receive sufficient attention in contemporary Arabic literature, except for a few writers and thinkers.

One of those is the thinker Abdel-Wahab Al-Messiri, who cared for the child and wrote for him with deep awareness, considering it an important part of his Arab-Islamic civilizational project. In his series "Hikayat Hatha A'zamen" and through the story "Maaraka.. Kabira Saghira" he focused on the intellectual structure of the child, and drew the features of human utopian thinking.

Keywords: Children's Literature; Utopia; Virtue; Child; Abdul Wahab Al-Mesiri.

*Corresponding author: e-mail: saiba.souad@cu-tipaza.dz.

1- مقدمة

لم يلق أدب الطفل الاهتمام التقدي إلا في العقود الأخيرة، بعد إدراك أهميته، التي يكتسبها من أهمية موقع الطفل نفسه من الأسرة والمجتمع، حيث أضحت العناية به وتنشئته على الفضيلة الخلقية والاجتماعية والفكرية مجالاً للاستثمار في الإنسان، والأدب أحدها، من خلال فروعه الثلاث؛ النص القصصي والشعري والمسرحي، والدراسة ستركز على الأدب المكتوب، وربما كانت القصة منه هي الأقدر تأثيراً، لأسباب عدة، منها أنها الأكثر رواجاً مقارنة بالشعر والمسرح، ولأنها تخاطب وجدان الطفل وشعوره وعقله، عبر العوالم اليوتوبية والساحرة والعجائبية، التي ينتصر فيها دائماً الخير على الشر، ويسود السلام والوئام والحب والخير والحق والسعادة، ولأنها تعتمد أسلوباً محبباً لديه؛ العبارة البسيطة، والصورة ذات الألوان الجذابة والدلالات الواضحة، والأشكال الطريفة التي تثير العين، كما أنها تنهى وتأمّر وتعظ وتوجه الطفل دون المباشرة، التي ينفر منها، لطبيعته الميالة إلى الانطلاق واللاقيد والمغامرة، والنهي والمنع مثيرات تحث طبيعة العناد لديه، وتدفعه إلى التحدي والتمرّد، من منطق "كل ممنوع مرغوب"، في مراحل العمرية الأولى، ثم يتعوّد لاحقاً على الطاعة والانصياع والخضوع، دون تقليب للأمر أو مناقشتها، ويفقد شيئاً فشيئاً قاموسه السلوكي كلمة "لا".

تقتصر الدراسة على القصة، على اعتبار أنها الأكثر تأثيراً في الطفل، والأقرب إليه في العملية التعليمية، وتقوم على التدرج في العملية الخطابية، ولأنها توظف لغة مفعمة بالحب والزفة، تقنع الطفل، ويشق بمصداقيتها. لذا كان الاهتمام بالقصة ضرورياً، وإخراجها في شكل أنيق مطلوباً، وإن كان المضمون مهماً فعلياً، غير أن الشكل أهم؛ لتعزيز عملية التلقّي الحسي والتفسي، بداية من الغلاف إلى نوع الورق، إلى العنوان المستفز لفضول الطفل وميولاته، وصولاً إلى المتن، باختيار المفردات من معجمه، والاعتماد على الجملة القصيرة، مع الحرص على علامات الوقف، إلى العناية الخاصة بالرسومات المرافقة، باعتبارها نصاً موازياً مهماً، يعتمد عليه المتلقّي الصغیر ليتم له المعنى، إلى جانب عنصر الشخصية المحورية، التي تتولّى عملية التوجيه والتعليم، بلسان الحال أكثر من لسان المقال. وعليه؛ سيكون التأويل إجراء أساساً للدراسة، التي ستعتمد إلى عرض نظري موجز، لأهم المفاهيم التي تتمحور حولها الدراسة، ليتيسر لنا المرور إلى لبها، المتفرّع إلى مبحثين، الأول يركّز على النص البصري، والآخر على المكتوب، فيما الفصل بينهما نظري، لأن الدلالات تتشكّل بتراكب المرئي مع المقروء، وهو ما يسوّغ لنا طرح سؤال؛ إذا كانت موضوعات أدب الطفل تهدف إلى غرس الفضيلة في نفس الطفل؛ فأَيّ الفضائل أكثر أهمية للطفل وفق رؤية عبد الوهاب المسيري، من خلال أنموذج قصة "معركة.. كبيرة... صغيرة" من سلسلة "حكايات هذا الزمان"؟ وما هي الفنيات التي عمد إليها لتجسيد رؤيته الطوباوية؟ ولماذا؟

2- تعاريف ومفاهيم محورية:

تعاملت الحضارات المتعاقبة مع الطّفل على أنّه رمز الحياة السّعيدة ومنبع البهجة، بل أيقونة الحياة نفسها، أليس هو ثمرة خصوبة الجنس البشري؟! وأملها المتجدّد، وحبل الامتداد عبر الزّمان والمكان، وهو الرّوح الطّاهرة والنّقيّة والشفّافة قبل أن تشوبها الرّغبات والغرائز والشّهوات، ما يدفع إلى منحه الرّعاية الخاصّة، والتّجنّد للاهتمام به، لأنّه عماد المستقبل، وصلاحه صلاح الأُمّة، وتمكّنه الفكري والمعرفي مقوّم من مقوّمات التّهوض بالحضارة، وقاعدتها الأساس.

يردّ النّقاد العرب نشأة أدب الطّفل: *Children's Literature* إلى القرن العشرين، والواقع أنّ نشأته أقدم بكثير، إذ نشأ متلبّساً مع أدب الكبار، حريصاً على الفضيلة والأخلاق والقيم الرّاقية، ألا يمكن عدّ قصص كليلّة ودمنة التي تناقش الأخلاق نصوصاً موجّهة للأطفال، رغم التّصنيف المخالف مع الدّراسات المعاصرة ونظريّة الأنساق، وقصّة حيّ بن يقظان التي تناقش فضيلة الفضائل؛ الإيمان بالله والفطرة السّليمة، ونصوص ألف ليلة وليلة، التي تعدّ فيها قيمة الحبّ بكلّ أنواعه وأطرافه بالموازاة مع قيمة الوفاء قيماً جوهريّة، تتكرّر بشكل أو بآخر في كلّ قصّة؟! بل وفي فنّ الشّعراً أيضاً؛ ألم تحرص العرب على تحفيظ لاميّة العرب للشّغف للأطفال، لما فيها من آداب وقيم الإنسان العربي، ومن بعدها مقامات الهمداني، حيث جمع يوتوبيا اللّغة وسحرها بديستوبيا المضامين، التي دوّنت فترة حرجة من تاريخ الدّولة الإسلاميّة، وصرّح أنّه كتبها للأطفال، لتحفظ لسانهم العربي من اللّحن والشّوه، ومنه حفظ روح هويّة الأُمّة العربيّة؟!

وبالمقابل: لم يعرف أدب الطّفل في العصر الحديث غير القصص المترجمة من الآداب العالميّة الغربيّة الكلاسيكيّة، التي تمجّد الميثولوجيات القديمة، والمعتقدات الغربيّة، بما فيها من قيم وأخلاق يتعارض معظمها مع الثّقافة والقيم العربيّة الإسلاميّة، كقصّة سندريلا وبياض الثّلج والأقزام السّبعة والجميلة والوحش وأليس في بلاد العجائب، وغيرها ممّا لا تخلو منه مكتبة عربيّة، ويحفظها الأطفال عن ظهر قلب، حتّى أصبحت أيقونات، من شدّة التّرويج لها قصّة مكتوبة ومسموعة ومشاهدة في الأفلام الحقيقيّة والكرتون، وعلى الملابس والأفرشة والأواني وجدران غرف النّوم، والحقائب والأدوات المدرسيّة، والألعاب الإلكترونيّة والدّمى، والحلوى، وغيرها، وهو خطر ألحق ضرراً بالغاً بمقوّمات الهوية لدى الطّفل العربي، وبنية عقله، ومن هنا أصبح التّحدّي ضرورياً، وعلى المبدع العربي أن يكون في مستوى الوعي المطلوب، لاستدراك العطب، من خلال الموضوعات التي تتناولها إبداعاته قصّة وشعراً ومسرحاً، لتساهم في بعث القيم الحضاريّة للإنسان العربي المسلم، ابتداءً بمرحلة الطّفولة، ووضع الأساسات التي ستقوم عليها شخصيّة الطّفل، ومصدرفاعليّته في المستقبل، من خلال نصوص تغرس المبادئ الرّاقية والقيم الإنسانيّة فيه، وقد أدرك بعض الأدباء العرب حجم المسؤوليّة، وتكفّلوا بحمل ثقلها الثّقافي على عاتق أقلامهم، منهم المفكّر عبد الوهّاب المسيري، الذي لم يغره عالم الكبار،

الذي خصّه بالنقد والتفكيك والكشف عن أكثر مناطقه ظلمة ووحشية، والتفت التفاتة كلية إلى الطفل، وأبدع في أدبه.

2. 1- أهمية أدب الطفل:

بالاتفاق حول مفهوم الطفل أنه "الولد الصغير بين لحظة الولادة ومرحلة البلوغ" (عمر، 2008، صفحة 1405)، والأدب بالنسبة له في هذه المرحلة أداة فاعلة من أدوات التنشئة وتوسيع المكتسبات، ومع ذلك لم يحظ "أدب الطفل" بالعناية اللائقة به، في البلدان العربية، لا فقط ضمن مخططات التنمية الثقافية والتربوية، بل حتى على مستوى أهل اللغة والنقد والأدب أنفسهم، إلا في السنوات الأخيرة، وإن على نحو محتشم، حتى أننا لم نعثر على المصطلح في المعاجم الاصطلاحية المعاصرة الأشهر لدى النقاد والأدباء العرب، فهو يعاني الإقصاء والتهميش إلى حد ما؛ إبداعاً ونقداً، مقارنة بباقي الآداب، رغم نشأته المتلبسة بنشأة أدب الكبار؛ فتجديدات الجدات والأمهات للصغار عند التوم ضاربة في القدم في كل الحضارات، وجل القصص الشعبي والتراثي وضعت لتنشئة الأطفال على ثقافة وقيم ومعتقدات معينة، قبل أن تتوجّه للكبار، لأنها تقوم على السحري والعجائبي والخيال الجامح أساساً، وهو شغف الطفل الأكبر.

فإذا كان الأدب مصطلحاً اكتسب حمولات مفهومية عبر العصور، انسجماً مع السياقات الثقافية والمعرفية المتعاقبة، فإنه ما يزال يحتفظ في شق منه بمفهومه المعنوي الأول، فقد كان بمعنى التهذيب والخلق في صدر الإسلام "أدبي ربي فأحسن تأديبي"، وبمعنى التعليم في عصر بني أمية، ثم اجتمع المعنيان في العصر العباسي، قبل أن يستقر على المعنى الشائع اليوم، منذ منتصف القرن التاسع عشر (وهبة وكامل، 1984، صفحة 16)، فالتأديب والتعليم وغرس القيم والأخلاق معان لا تخرج عن دائرة المفهوم الواسع لمصطلح الأدب، معان تصب في باب الخير والفضيلة، وإذا تأملنا هذه المعاني نلفيها لا تنسجم مع كل المراحل العمرية للإنسان، وإنما تستهدف مرحلة الطفولة دون غيرها، وهي أخصب المراحل وأنسبها للبناء الخلقي والفكري والاجتماعي والعقائدي، وهو مصدر أهميتها وخطورتها وخصوصيتها في آن، حيث يكون استعداده للتعلّم عالياً، لخلوه من خبرات وتجارب سابقة، وكل ما يتلقاه في هذه السن سيبنى رجل المستقبل. فأدب الطفل من هذا الباب "يتدرّج -بالطفل- إلى الكمال عن طريق إشباع حاجاته، في إطار المثل والقيم والنماذج والانطباعات السليمة" (الهاشمي ع.، 2009، صفحة 29)، بقصد صناعة الإنسان، وحفظ إنسانيته، أي جوهره، ما يفضي إلى القول بأن أدب الطفل محاولة مستمرة لرسم معالم الحلم الإنساني بإنسان كامل، أو يوتوبيا القيم الإنسانية.

كل قائد عظيم أو بطل أو زعيم أو مسؤول كان ذات يوم طفلاً لا يميّز بين الجمر والحصى، لا فرق بينه وبين الطفل الذي كانه أخطر مجرم أو طاغية، لكنّ الفرق أخذ يتشكّل، والبون يتسع بينهما، وفقاً للنماذج التعليمية التي تلقاها كلّ منهما، ولا نقصد هنا عملية التعليم والتلقين من قبل الآباء في البيت والمعلّم في المدرسة، وإن كانت جزءاً مهماً منها، فالطفل يأخذ مثله من سلوك الأشخاص المحيطين به بالدّرجة الأولى، لأنّه

شديد الولع بالتقليد والمحاكاة، والعملية ذاتها تتم في حال الشخصيات الخيالية في ما يقرأه من أدب/قصص، وخاصة الشخصية المحورية التي يحبها في القصة.

2. 2- مفهوم أدب الطفل:

نظر بعض النقاد العرب أدب الطفل من زوايا مختلفة، بالتركيز على مضامينه وفروعه أو وظيفته أو ماهيته، وآخرون حاولوا الإلمام بجميعها بوصفه "عمل تربوي يتطلب فهما كاملا لنفسية الطفل وظروفه وإمكاناته المختلفة، بهدف تسليته وتعليمه وتكوين شخصيته السوية القادرة على ممارسة دورها البناء في إثراء الحياة، والتهوؤ بها وإسعاد الفرد والمجتمع" (الهاشمي ع،، صفحة 30)، فأى عمل فني يستهدف الطفل والتأثير فيه يدخل في إطار أدب الطفل، شريطة أن يلمّ مؤلفه بالفروقات بين مراحل الطفولة، واحترام مستويات مداركه وشغفه، والتزام اللغة التي يفهمها، حتى يتم التلقي بسلاسة، وتحقيق العمل المرجو منه، بتقديم المعرفة وتوجيه سلوكه، وتنمية قدراته العقلية، وكيفيات التفكير الصائب، في قالب الترفيه والتسلية، لأنه ينفر من الأوامر والأشياء التي لا تثير حواسه. والهدف الأول من وراء هذه الشروط هو إحداث أثر إيجابي في الحياة؛ تجديدا أو إضافة أو تعديلا أو تغييرا، يفضي إلى حياة السعادة والفضيلة، بالتربية الجمالية والوجدانية، والارتقاء بالذوق، والتمييز بين الجميل والقبيح، والتربية الخلقية بالترغيب في الخير والتنفير من الشر، والتربية اللغوية، بإثراء قاموسه اللغوي السليم، والتربية الفكرية: بحثه على النمو والتطور، وتطهير انفعالاته؛ بتوجيه سلوكه الوجهة الصائبة، وتعريفه بالخطأ، من خلال القصة على وجه الخصوص، لأنها تخاطب وجدانه وإحساسه وعقله، فتثير خياله وتوسّعه، وتقوده إلى ما وراء الترفيه؛ إلى التحليل والإبداع، وتعلّمه طرح الأسئلة والإجابة عليها بمستوى إدراكه ووعيه، من أجل تفكير سليم وإبداعي، ومنه شخصية قوية وسوية ومتمكنة وسعيدة.

نشأ أدب الطفل في الأدب العربي نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ومع ذلك ما زال يخطو خطواته الأولى، لأن كتابته تختلف عن كتابة الأدب العام، بما يقتضيه من شروط تمثل خصوصيته، على المؤلف مراعاتها، منها شكل الكتابة؛ من طبيعة اللغة البسيطة، والمتدرّجة في البساطة، أمّا المضمون، فيحكمه عمر الطفل المتلقي للنص أيضا، إضافة إلى فهم نفسيته، وطبيعة إدراكه ومستوياته، وحاجياته، بالاطلاع على العلوم المتخصصة في ذلك، أهمّها علم النفس التربوي، وهو مردّ الفجوة التي تمثلها الكتابة للطفل في الساحة الأدبية العربية والإسلامية.

2-3. أشهر أعلام أدب الطفل في العالم العربي:

بتخطي مرحلة الترجمة لنصوص أدب الطفل الغربية، باعتبارها تمهيدا لنشأته؛ نجد من المؤسسين الأوائل الشاعر أحمد شوقي (1868م- 1932م)، الذي كتب شعرا، وبه "اقتحم الميدان رائدا فيه متأثرا

بالشاعر الفرنسي لافونتين، فقدّم للأطفال مجموعة من الأشعار بلغت ثلاثين قصّة شعريّة على ألسنة الحيوان.. نشرها في الجزء الرابع من ديوانه الشوقيّات" (الأسعد، 2013، صفحة 112)، إضافة إلى أعمال كامل الكيلاني (1897م-1959م)، رائد الكتابة للأطفال في العالم العربي، كتب للطفّل ما يربو على ألف قصّة ومسرحيّة، ترجم أهمّها إلى العديد من لغات العالم، كانت أولى قصصه "السندباد البحري" (الأسعد، 2013، صفحة 113)، وقد آمن بأهميّة أدب الطفّل، ودور القراءة في بناء الإنسان، ومنه تحقيق نهضة حضاريّة، وسار على خطاهم آخرون، دون بلوغ الكمّ والكيف اللّازمين، إلى أن برز المفكر الإسلامي أبو الحسن الندوي (1914م-1999م)، والذي على انشغاله الواسع بالتأليف في الثقافة الإسلاميّة والفكر والتّاريخ والأخلاق كان من الأوائل الذين انتبهوا إلى النقص، بل وسوء ما يكتب، لما يتضمّن من قيم من الثقافة الغربيّة ممّا يفسد على الطفّل عقيدته الإسلاميّة وقيمه المستمدّة من الدّين الإسلامي، ورأى بضرورة تقديم مضامين هادفة، تتعلّق بالشخصيّات التاريخيّة، والنماذج القدوة، وكتب سلسلة "قصص النّبیین" وسلسلة "القراءة الرّاشدة"، بين سنتي 1942م و1944م.

4-2- موقع اليوتوبيا من أدب الطفّل:

تعدّ الكتابة للطفّل أمراً معقّداً، وربّما كانت الأصعب للموقع الحساس للمتلقي، والطّبيعة المخصصة للنّص، لأنّ الفضيلة مرماه، واليوتوبيا بمعنى التّمام والكمال والفضيلة بشكل عام تطبع أبعاده. والفضيلة: Virtue، مقابلها الرّذيلة؛ و"فضيلة الشّيء مزيّته، أو وظيفته التي فُصّدت منه، أو كماله الخاصّ به" (صليبا، 1982، صفحة 148)، فهي ما خُصّ به أيّ كيان، ووجد لأجله، لتكون فضيلته أداء وظيفته على أتمّ وجه ممكن، ومنه فضيلة الإنسان أداء الغاية من وجوده في الحياة "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الدّاريات:56)، فمهمّته الأسمى عبادة الله وحده، ليس بمعنى الزّهد أو التّصوّف، وإنما الحياة بنيّة عبادة الله "قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (الأنعام:162)، كما عليه أن يؤدّي الغاية من وجوده على الأرض "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" (البقرة:30)، وخلافها لا تتأتّى إلّا بفضائل الأخلاق والقيم التي تحكم الممارسات والسلوكات، واحترام نوااميس الكون والخلق. فتصبح الفضيلة "هي المبدأ الدّاخلي للأفعال التي يحقّق بها الإنسان كماله الدّاتي، وسعاداته، وسعادة غيره" (صليبا، صفحة 149)، فثمررة الفضيلة السّعادة. وقد حصر قدماء الفلاسفة أمّهات الفضائل في ثلاث "الحكمة والعفة والشّجاعة والعدالة" (صليبا، صفحة 149)، فالحكمة فضيلة العقل بالفكر، والعفة فضيلة النّفس حين تتغلّب على شهواتها وغرائزها، والشّجاعة فضيلة توازن النّفس بين التّهوّر والجبن، وأمّا العدالة فهي ثمرة كلّ ذلك، فلا يقع ظلم على الدّات ولا على ما سواها، وتتحرّك جميعها في إطار فضيلة الإيمان والحبّ واحترام الإنسان من حيث هو إنسان، الذي لا تتمّ له الفضيلة إلّا إذا كان فاعلاً ومتفاعلاً في الحياة الاجتماعيّة، لذلك كان أهمّ من تولّى هذه المهمّة الثقافيّة والحضاريّة الثّقيلة من المتقدّمين والمتأخّرين أدباء وشعراء ومفكرين، هم أصحاب الأقلام السيّالة المسنونة، على المستوى المحلّي والعربي والعالمي، منهم عبد الوهاب المسيري.

2. 5 - نبذة عن عبد الوهّاب المسيري المفكر والمبدع العربي (1938م-2008م):

أحد أشهر المفكرين العرب المعاصرين، "عالم شديد الاتّساع والثراء، حتّى أنّه يكاد يكون صاحب مشروع متكامل لإعادة تأسيس العلوم الإنسانية، وفق رؤية عربيّة إسلاميّة (إنسانيّة).. تأسيس حدثا إسلاميّة، وكانت الحصيلة إنتاجا كبيرا يجمع بين الغزارة والعمق والتنوّع" (الشيخ، 2017، صفحة ظهر الغلاف)، مفكر عميق، اجتهد واسعا في مجالات العلوم الإنسانية، منها الفلسفة والتّاريخ والأدب والسّياسة وعلم الاجتماع، من أجل التّأسيس لحدثا في العلوم الإنسانية من منظور إسلامي عربي، بمشروع نهضة عربيّة إسلاميّة. وقد غيّرت كتاباته فهم العربيّ والمسلم للعالم والعديد من القضايا التي كانت مهمة، أو أقلّه مسكوت عنها، أو مغلوطة الفهم. أوّل إصداراته كتاب "نهاية التّاريخ: مقدّمة لدراسة الفكر الصّهيوني/1972"، يرى فيه أنّ نهاية التّاريخ خطّة غربيّة عالميّة لصناعة إنسان البعد الواحد المختزل في شقّه الطّبيعي، بنشر ثقافة الاستهلاك، وتحقيق الفردوس الأرضي، للسيطرة عليه ومنه على العالم (المسيري ع..، نهاية التّاريخ: مقدّمة لدراسة الفكر الصّهيوني، 1972). ومن أهمّ منجزاته، حيث أثار قضايا جدليّة عبر التّاريخ؛ "موسوعة اليهود واليهوديّة والصّهيونيّة/1999/8 مج"، نقد وفكّك فيها اليهود واليهوديّة والصّهيونيّة، وحاول الإلمام بتاريخ العبرانيين القدماء، والجماعات اليهوديّة، وتوزّعها في دول العالم، وتنظيماتها وهياكلها، وأعلامها، وأزماتها (المسيري ع..، 1999). إلى جانب مؤلّفات أخرى حلّل وفكّك ودرس من زوايا مختلفة موضوعات تخصّ اليهود وفكرهم وما تعلّق بهم، ودولة أمريكا ونظامها وسياستها، والإيديولوجيات في العالم. إضافة إلى كتاباته المهمّة في نقد الحدثا الغربيّة، وتفكيك مركزيّتها، في عشرات المؤلّفات والدّراسات، كما كتب في قضايا العالم العربي، والعلمانيّة، وقضايا المرأة، منافحا عن الهويّة العربيّة والإسلاميّة. ومعروف عن المسيري أنّ تحوّلّه عن الاتّجاه الماديّ لم يكن على مستوى الأفكار فقط، وإنّما قناعة في الحياة، شمل نشاطاته الفكرية والممارساتيّة ومعاملاته اليوميّة، وكان حذرا جدّا في التّعامل مع مفرزات الحدثا وما بعدها، وهو ما يرويه مفصّلا في كتابه "رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر/2000"، وصرّح به في لقاءاته الصحّفيّة وحواراته.

في غمرة انشغال المسيري بالقضايا الكبرى توجّه إلى الطّفل العربي، وكتب له ما لا يقلّ عن خمسة عشرة عملا، لإيمانه بأهميّة في أيّ مشروع حضاري وثقافي، لأنّ البداية بتهيئته فكريّا وأخلاقيّا وقيميّا. وقد تزامن إصدار أوّل أعماله من سلسلة "حكايات هذا الزّمان" بدأ كتابتها سنة 1970، ونشر الأعداد الأولى منها سنة 1999م، وقد افتتحها بـ"نور والدّنب الشّهير بالمكّار"، في ستة عشر صفحة (16)، مع إصدار أهمّ مؤلّفاته وأضخمها "موسوعة اليهود واليهوديّة والصّهيونيّة"، في ثلاثة آلاف وثلاث مئة وثلاث وخمسين صفحة (3353)؛ موسوعة تعدّ أحد أكبر الموسوعات العربيّة المعاصرة، فكيف يمكن قراءة هذا الاهتمام والاجتماع؟! الجواب الأقرب من منظور مفكر بمقام المسيري وعمقه؛ أن تكون الكتابة للطفّل لا تقلّ أهميّة ممّا نذرله قلمه وعمره، من قضايا الإنسان والتّاريخ والفكر، والمواضيع الشّائكة قديما وحديثا.

3-الفضيلة والأبعاد الـيوتوبية في قصّة "معركة.. كبيرة.... صغيرة" لعبد الوهاب المسيري:

استقرّ الاختيار على قصّة "معركة.. كبيرة.... صغيرة"، وهي رابع قصّة من سلسلة "حكايات هذا الزّمان" التي لا تقدّم للطفّل عالماً يوتوبياً بريئاً، ينتصر فيه الخير على الشرّ دائماً، حتّى إذا خرج بعد حين إلى واقعه، انصدم من التناقض الكائن بين العالمين، ووجد نفسه يصارع طواحين الرّيح، وجهاً لوجه مع الطّبيعة البشريّة التي يتنازعها شقّها الطبيعي المتمثّل في الجسد، وشقّها اللاطبيعي، الذي يمثّله الوعي، وبمعنى آخر الطّبيعة الحيوانيّة والطّبيعة الإنسانيّة. حكايات هذا الزّمان تحاول تقديم عالم مرّكب، فيه الخير والشرّ، وفيه النظام والفضوئى، والخير لا يعني إلغاء انتماءنا للطّبيعة، كما أنّ الشرّ لا يعني إلغاء لفضيلة والوعي والتّاريخ، وإنّما الفضيلة في التّوازن بينهما، على اعتبار الإنسانيّة هي الأصل، لو أنّ الإنسان يخيّر بينهما، فعليه أن يختار الأصل، لكونه جوهر الفرق بين الإنسان وغير الإنسان. "فعالم الأطفال هو جزء من عالمنا لا ينفصل عنه. والأطفال ليسوا ملائكة ولا بشرًا ناقصين، بل بشرًا كاملين يجب أن نعتزّ بإنسانيتهم الكاملة" (المسيري ع.). رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثّمر، 2000، (صفحة 254)، التي تقتضي إحترامنا لهم، إذا أيقنّا أنّ الطّفل "كائنًا ذكيًا وقادراً على إدراك كلّ الأمور، إن تمّ نقلها إليه بأسلوب مناسب" (المسيري ع.). (صفحة 254)، فالفضيلة والكمال لدى المسيري ليس في أن نكون كالملائكة، وإنّما إنسانيّين بالدّرجة الأولى، لنؤسس حضارة، ونحقّق نهضة عربيّة إسلاميّة.

غطّت أحداث القصّة ورسوماتها بياض ستّ عشرة صفحة، تشارك فيها ثلاث شخصيات أطفال الحوار والأحداث؛ نديم وياسرونور، إضافة إلى الجمل ظريف والدّيك حسن، ما يضع القصّة في خانة القصّ العجائبي، ويرومها راو خارجي، على غرار السّرد الكلاسيكي. تصوّر حادثة كثيرة التكرّر بين الأطفال؛ وهي الاختلاف في الرّأي، فيدخلون في جدل عقيم، بإصرار كلّ طرف على صواب رأيه، وشرعيّته. والواقع أنّها ظاهرة متكرّرة بين الكبار أيضاً، وأثرها أشدّ ضرراً منه لدى الأطفال، بل وحتّى بين الأطراف معنويّة كالمؤسسات والحكومات والبلدان، وتبعاتها أوسع وأخطر. ويهدف مناقشة إشكاليّة الدّراسة، من خلال قصّة "معركة.. كبيرة.... صغيرة"، سنركّز على رصد تجلّيات الأبعاد الـيوتوبية في النّص المكتوب، وما يؤوّل بالفضيلة، وبالتّركيز والاهتمام ذاته سنركّز على النّص المرئي، من علامات بصريّة، بقراءة الصّور المصاحبة للنّص، وصورة الغلاف، وما عليها من أشكال وألوان وصورة، وعلامات لغويّة، بما فيها النّص على ظهر الغلاف، لأنّ النّص البصري أكثر أهميّة بالنّسبة للطفّل؛ إذ يعتمد عليه في الفهم، ويظلّ في عمليّة مراوحة مستمرة بين النّص والصّورة.

3. 1- قراءة في الغلاف:

على الغلاف دوالّ بصريّة موضوعة بعناية لا تقلّ عنها بالدّوالّ اللّغويّة، تتوجّه بدلالاتها إلى المتلقّي الصّغير، تجذب انتباهه؛ بإثارة حاسة البصر على وجه الخصوص، ومن ثمّ إثارة وجدانه وأحاسيسه، لتدفعه إلى التّساؤل والحيرة، وتحثّ فضوله، لولوج المتن، وتجدر الإشارة إلى ما يقوله المسيري عن علاقته بالألوان

والرسم: أن "الاهتمام بالتشكيل اللوني والمعماري - بعد تجربة عميقة ومدهشة في متحف الجوجنهايم في نيويورك، إذ شعرت فجأة بالعالم من حولي يفيض بالألوان وأسمع أصواتها، وأصبت بالدوار- أصبح منذ تلك اللحظة جزءا من رؤيتي للعالم" (المسيري ع..، صفحة 527)، فهو خبير بالألوان والأشكال، ويعرف كيف يوظف علاماتها بتوافق مع العلامات اللغوية^(1*).



الشكل (1) غلاف قصة "معركة.. كبيرة صغيرة"

إنّ أول ما يثير عين الطفل في صورة وجه الغلاف (الشكل: 01) هو الوجهان العابسان والمتجهّمان، ما يدفع الطفل إلى التساؤل، وفي الآن نفسه؛ يحاول العثور على جواب في العنوان "معركة.. كبيرة.... صغيرة"، في أعلى وسط الصفحة، بخطّ كبير عادي، لا زخرفة ولا تداخل ألوان فيه كخطّ "بلايلو" و"جرافيك مان" ذات النكهة الطفولية، فالحروف برسمها السليم وأحجامها المتناسقة باللون الأزرق البارد، يعطي انطبعا بأنه لا يستهدف الوجدان بقدر استهدافه للعقل.

كلمة "معركة" تتناسب مع مستوى إدراك وقاموس طفل بين السادسة والتاسعة من عمره، وهي لا تعني عنده غير معنى حرب بين جهتين، في الغالب مواجهة بيت جيشين، أمّا الكلمتان "كبيرة" و"صغيرة"، فدالتان مقترنتان بالحجم والمساحة، وحين ربطهما بمعنى "معركة"؛ تصبح دلالة العنوان أن خصومة أو شجارا حادا دار بين الطفلين في الصورة، لذلك يبدو وجههما بهذا الشكل، ثمّ تتبادر إلى نفسه الحيرة؛ لكن لماذا تخاصما؟! فيعود مجددا إلى الصورة يتفحصها عساه يلتقط إشارة ما؛ لا علامة تفسر العنوان، وليس غير علامات أخرى من لغة الجسد الظاهرة تؤكد الخصام بينهما.

إضافة إلى الحواجب المقطّبة والشّفا المزمومة، كلاهما يشابك ذراعيه أمام صدره، فلغة جسديهما يمكن لأيّ طفل في العالم قراءتها، لأنّها لغة فطرية وعالمية، ف "إيماءة ثني الذّراعين أمام الصدر فطرية.. عندما يكون للشخص موقف عصبيّ أو سلبيّ أو دفاعي، فعلى الأرجح أنّه سيطوي ذراعيه أمام صدره بشدة، ليظهر أنّه يشعر بالتهديد" (بييز، 2008، صفحة 91)، وهو ما سيفهمه الطفل لاحقا بعد القراءة، إذ اتخذ كلّ طفل موقف الدّفاع عن صواب رأيه، ورفض رأي غيره، وشعر أنّه مهدّد ومفروض، كما تزكّي علامة ما يشبه التّشقّقات في خلفيّة الصورة دلالة القلق والاضطراب .

الآلفت للانتباه في صورة الغلاف ومعظم الصور المرافقة، في هذه القصة وباقي قصص السلسلة طغيان اللون الأزرق، المعبر عن "الصفاء والهدوء والسلام" (مطر، 2020، صفحة 104)، لون العنوان والإطار وملابس الولد والبقع على الخلفية؛ يتسرب أثره عبر العين إلى وجدان الطفل وأحاسيسه، فهو أكثر الألوان حضوراً في الطبيعة؛ يذكر بالسماء والبحر، أما نفسياً فيشعر بالبرودة والراحة ويبعث على الاطمئنان والسكينة، لذلك نجده اللون العام للمرافق الصحية.

عمد المسيري في غلاف هذا العمل وغيره من الأعمال القصصية إلى وضع كل العلامات اللغوية والبصرية داخل إطار، وهو في هذه القصة أزرق، توزعت عليه عصابات صغيرة بنية، تميل إلى الأحمر لتضفي التوازن اللوني، بين برودة الأزرق ودفء الأحمر، وللإطار دلالة القانون والحدود والنظام ورفض الخرق، فلا بد لكل شيء أن يتحرك داخل إطاره الخاصة، وإلا عمّت الفوضى والعشوائية والتجاوزات والتعدي، وبالتالي وقوع الظلم، وغالباً ما يكون على الطرف الأضعف.

اسم المؤلف ومنجزة الرسومات وهما مما لا يلتفت إليه الطفل، كتباً بخط صغير نسبياً، باللون الأخضر، الذي يمتد على مساحة معتبرة من الصورة، بثوب البنت، الذي يعكس الثقافة الإسلامية، وقيمة الاحتشام بشكله شبه السابغ على البدن، وفضفضته، دون إهمال لجماله، بزركشات صغيرة سوداء، وتفصيلته الأنيقة، إضافة إلى حداثها باللون ذاته، يذكّر بلون الحياة؛ الغابات والحقول والعشب والنباتات والأشجار وأماكن ازدهار الحياة، أما أثره الإيجابي على النفس فمن "حيث ترتبط الحقائق بهدوء الأعصاب والحيوية.. ويرتبط أيضاً بمعاني النعم والجنة" (مطر، صفحة 105)، ففيه راحة وهدوء لعين الطفل، ويصبح الأثر مضاعفاً إذا كان "الأزرق يرتبط بالسماء والماء، فهو لون مناسب للهدوء وبرودة الليل، وإذا اجتمع مع الأخضر فإنه يمثل أقصى درجات البرود" (مطر، صفحة 104)، ومنه بعث لمشاعر تتعارض مع السياق النفسي للأطفال في القصة وهم يتجادلون، وقد استشرى الغضب بينهم، فالألوان منتقاة بحكمة تهدئ مما يمكن أن يمتد إلى الطفل/القارئ من مشاعر، حين يتفاعل مع أحداث القصة، ويتقمص الشخصية التي ينسجم معها.

ومن العلامات ذات البعد اليوتوبي الأخلاقي خصُ الولد بسرّوَال سابع، وليس تبّاناً قصيراً، كما بات مألوفاً من لباس الأطفال في المدارس والشوارع والبيوت، وخصّ البنت بفستان سابع وليس سرّوَالاً، تربية وتعويدا على ستر ما أمر الدين بستره من الجسد، وتحبيبا فيه، لأنّ ما أضحى مألوفاً اليوم من اللباس القصير والضيق والفاضح بين الأطفال إنّما هو من مفرزات الحضارة الغربية التي روجت لها وسائل الميديا وتجارة الملابس ذات الماركات المشهورة، لعل أشهرها شخصية باربي، ذات الجاذبية الجنسية، الشقراء، التي ليس لها من سمات الطفولة شيء، لها منزل فاخر وملابس كثيرة كما أصدقائها boy friend يدورون كلهم في الفضاء المادي الاستهلاكي الذي يدور فيه الإنسان الغربي، فباربي "رمز الحضارة الغربية في عصر الحداثة وما بعدها

والسيولة الفلسفية، حضارة الهامبرغر والجينز والـ T-Shirt... تعبير عن رؤية مادية متطرفة تهدف إلى تحطيم الهوية والخصوصية وفي نهاية الأمر الإنسانية المركبة. مؤامرة ضد أطفال العالم، تهدف إلى تحويلهم إلى شخصيات استهلاكية لا هوية لها، وإلى إفقادهم طفولتهم وبراءتهم"، وإن كان المتلقي طفلاً، فإن عادات اللبس والطعام والسلوكيات اليومية عموماً، إنما هي فعل يدرج عليها حتى تتحول إلى قناعة راسخة، لا يمكن التنازل عنها أو مناقشتها. فعلى سبيل التمثيل يمكن لطفل مسلم لم يع بعد الفرق بين الجنسين، أن يلبس فستان أخته، ويخرج به إلى الشارع، بينما يستحيل عليه أن يفعل وهو في العشرين، مهما حاولنا إقناعه. فلبس الأولاد الثبان القصير، والفساتين الضيقة والقصيرة أو السراويل للبنات ثقافة غربية، اجتهد الغزو الأوروبي الاستعماري في نشرها في المجتمعات العربية والمسلمة بسنّها قوانين في المدارس، أمّا بعد جلانته؛ فتكفل الغزو الثقافي بالمهمة بحرص أشد، عبر وسائل الميديا وموضات الملابس، وتجتهد القصة بعلامتها البصرية في إعادة بعث القيم الإسلامية والعربية الأصيلة في الطفل، بمخاطبة لوعيه.

على ظهر الغلاف (الشكل: 01) خطاب مباشر إلى القارئ الصغير، في ثلاث فقرات صغيرة. بداية يوجز كل القصة في عبارة "ذات يوم شعر أبطال حكايات هذا الزمان بشيء من الضيق وكثير من الملل، قال ياسر: "فليحك كل منا قصة، فأنا أحب القصص"، وعلى الفور أخذ الأطفال يتجادلون فيما بينهم، ثم اتفقوا ألا يتفقوا"، جاء المقطع "شعر أبطال.. بشيء من الضيق وكثير من الملل" كتوطئة نفسية لجو القصة، إذ يوحى بالسلبية وفقدان الحماس والشغف، وانخفاض في الطاقة. بينما أكثر ما يؤثر من العبارة في الطفل؛ "فليحك كل منا قصة، أنا أحب القصص" جملتان تبتّان في نفسه الحماس، فيستعجل قراءة القصة، لأنه هو أيضاً يحب سماع/قراءة قصص.

أما العبارة الثانية: "هل تحب القصص عزيزي القارئ، وعزيزتي القارئة؟ هل أنت طفل يحب الجدل؟ إذا كنت هذا أو ذاك، فلا بد أن تقرأ هذه القصة، لماذا؟ لأنك ستكتشف أنك أحد أبطالها!"، يواصل الخطاب حتّ فضول المتلقي الصغير، مستثمراً في شغف الطفل بالقصة، ويتوجّه إليه بسؤال موظفاً كلمة "الجدل"، وأغلب الاحتمال أنها غريبة أو صعبة بالنسبة للقاموس اللغوي للطفل بين ستّ وتسع سنوات، وهو محفّز آخر يدفعه إلى القراءة ليعرف ما معنى الجدل، ويتساءل مرة أخرى هل هو من محبي هذا المسعى بالجدل، أهو شيمة أم عيب؟. وتتضمّن العبارة إشارة خفية من معاني القرآن الكريم، في عبارة "عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة" ففي الغالب وكما جرت عليه الألسن البدء بالبنات ثم البنين، عملاً بالعبارة الشهيرة بوعي أو بغير وعي "النساء أولاً"، وهي من عمق الثقافة الغربية التي انتقلت إلينا عبر الاستعمار وترجمة أدبياته، أمّا في ثقافتنا الإسلامية "فالرجال أولاً" حماية واستحياء، كما تذكره تفاسير القرآن في قصة موسى وسقيا الماء للفتاتين (القصص: 25)، وإن اختلف السياق، لكنّ الفكرة نفسها. فالمسيري يخاطب اللاوعي في الطفل، لإعادة الأمور إلى نصابها، والعبارة توجز مضمون القصة في جدل دار بين الأطفال، والقرآن الكريم يخبر صراحة أنّ الأنثى لا تحسن الجدل والحجاج، "أَوَمَنْ يُنَشِّؤُا فِي الْجَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ" (الزخرف: 18)، لأنّ

طبيعتها اللين وبذخ العاطفة التي تنسجم مع مقام الأمومة، حتى وإن صار الأبناء عجائز، تظل هي الأم، وهم أطفالها في عيناها. فجاء البدء بصيغة التذكير "عزيزي" قبل التأنيث "عزيزتي" منسجما مع طبيعة الأنثى النفسية والعقلية، مستحضرا البعد الأخلاقي بفضيلة الحياة.

وأما الثالثة "ستصبحك نور وإخوتها إلى عالمهم الطّفولي السّاحر البري، فتستمتع بقصة "معركة.. كبيرة.... صغيرة"، وتستمتع بالصّحبة"، إلحاح بدعوة القارئ الصّغير/الطّفّل إلى القراءة، بتقديم تعريف الشخصيات التي سيجدها في القصة، وهي نور وإخوتها، وبغريه بأنّه سيستمتع بالقصة، مع التأكيد بذكر عنوانها مرّة أخرى.

3. 2- قراءة في العنوان:

صاغ المسيري عنوان القصة بوعي كبير، وليس بغريب من مفكر فكك قضايا سياسية ودينية وفكرية وتاريخية ظلت من المسكوت عنه أو الممنوع الاقتراب منه، إن قديما أو حديثا، إذ اشتغل على مستوى الشكل والدلالة، فشكل الكتابة لا يعني الطّفّل إلّا بقدر ضئيل من التّخمينات، هذا إن كان سينتبه إليه، فإذا تأملنا العنوان "معركة.. كبيرة.... صغيرة"، نجد كلمة معركة جاءت متبوعة بنقطتين (..)، ثم كلمة كبيرة متبوعة بأربع نقاط (....)، ثم كلمة صغيرة، فالتقاط نقاط حذف، والمتلقي المستهف لا يفقهه في دلالات الحذف والإضمار والكنائيات، وهي تعني بالدرجة الأولى ولي الأمر المراقب لعملية التلقي، أو مقتني القصة البالغ، وحتى يدرك المعنى، يجب أن يكون من أهل اللغة والأدب خبيرا بأساليب التعبير، فنقاط الحذف مساحة متروكة لتأويل القارئ المتمكن، فقد يكون المحذوف مسيئا أو خطيرا أو غير مهم، وجميعها لا تنسجم مع المقام، واللّافت أن عدد نقاط الحذف الأولى اثنتان والثانية أربعة، فلماذا، ونقاط الحذف/الإضمار/القطع المعروفة ثلاثة (...)?

لعلّ المسيري قصد بالنّقطتين مرادفات كلمة معركة كحرب ووقّيعه وصراع وقتال وواقعة وعراك و مأزق؛ مرادفات في مستوى الكبار، لكن ما حدث بين الأطفال لم يبلغ مستوى المعركة، وإنّما صرف اختلاف، يمكن وصفه بالمشاجرة أو التّخاصم بالكلام دون عنف، وإصرار على عدم الاتّفاق، رغم الحلول التي اقترحها الديك حسن في كلّ مرّة (المسيري ع،، صفحة 7)، ومع ذلك المشاجرة بين الأطفال مقابل للمعركة، لا بين الكبار، وإنّما بين طرفين؛ إمّا ميدانية بين جماعتين أو جيشين أو قبيلتين أو دولتين، تستعمل فيها أسلحة من أجل التّصفية الجسدية، لبلوغ الهدف، أو معنوية، وتستعمل فيها وسائل الإعلام والثّقافة المقروءة والمسموعة والمرئية، إضافة إلى المنابر السياسية والدبلوماسية، وهي الأنسب لسياق الكلام، ورغم الفرق الواسع بين معركة الأطفال الكلامية ومعركة الكبار الفكرية، إلّا أنّ الرّابط بينهما هو اعتقاد كلّ طرف بصواب رأيه وفكرته وخطأ الآخر، ما يمنحه حقّ الأولوية، والواقع أنّه أنانية فردية أو جماعية، وحرص على المصلحة الخاصة، فالطّفّل الذي ينشأ على هذا النّحو، يصير إلى فرد ظالم في معاملاته وأناني بمصالحه ودكتاتوري في آرائه، وإقصائي في تصنيفاته، وبالتالي فرد فاسد في الأمّة، مفسد لأجيالها. وهي دلالات قد تكون تأويلا للنّقاط

الأربعة"...." بعد كبيرة، لأنّ الأمر قد يبدو غير ذي أهميّة، والواقع أنّه إشارة يمكنها أن تنبئنا بالمستقبل، لذا كان من الضروري الالتفات إلى مثل هذه المواقف بين الأطفال، والتدخّل لتصويب الأمور، وتوضيحها لهم، وهو ما ترمي إليه القصّة.

لكن قراءة أخرى تستدعيها صياغة العنوان، إذ يستحضر في الذهن المثل الشعبي العربي "يصنع من الحبّة قبة" (الهمداني، 2013، صفحة 182)، الذي يضرب مجازاً عن المبالغة، وتضخيم الأمور، ومنحها أحجاماً أكبر من حقيقتها، وهي في واقعها بسيطة، وربّما لا قيمة لها، ورفعها إلى مستوى قضيّة، وهو ما حدث بين الأطفال، إذا أصرّ كلّ واحد منهم أن يحكي هو الأوّل قصّته على الآخرين، وحين احتدم الاختلاف والنقاش بينهم؛ أخذ الجمل ظريف يحكي قصّته دون موافقة منهم، لكنّ نور قاطعته وشرعت تحكي قصّتها فقاطعها ياسر، وشرع يحكي قصّته، فقاطعته نور وظريف، ولم يتجاوز أيّاً منهم إفتتاحيّة القصّة، لأنّ الأطفال لم يكن هدفهم من وراء القصّة هو إفادة الآخرين بها، وإنّما حبّاً في الظهور، وأخذ الكلمة قبل الجميع، مع التحدّج بأفضليّة قصّته على قصص البقية.

وقراءة ثالثة تتبادر إلى الذهن باستحضار أقوال شهيرة في سياق الحديث عن صفار الأمور التي تولّد كبارها "ومعظم النّار من مستصغر الشرر"، "لا تحقرنّ صغيراً في المخاصمة .. إنّ البعوضة تدمي مقلّة الأسد/ وفي الشرارة ضعف وهي مؤلّة.. وربّما أضرمّت ناراً على بلد" (الهاشمي أ.، 2012، صفحة 384)، فالغضب والنقاش السّلبّي بين الأطفال، ورفض الاتفاق، قد يتطوّر إلى عنف، ويتحوّل الموقف إلى ضغينة في قلب كلّ منهم، وتكبر معه، لأنّه ومن فرط أنانيّته يشعر أنّه ظلّم، لكنّ هذا لم يحدث بين أبطال القصّة، لأنّهم ابتسموا في المساء وأدركوا الخطأ الذي وقعوا فيه، وهو ما ترمي القصّة إلى غرسه في نفس الطّفل وفكره، أنّ عليه مراجعة نفسه باستمرار، ويحاول رؤية الأمور بعين الذين اختلف معهم، حتّى لا تصير الأمور التّافهة إلى ما لا يحمد عقباه، ويجب النّظر إلى جوهر الأشياء لا أشكالها، فضيلة جسّدتها مشاهد القصّة بتصوير أفعال الأطفال وردودها وعواقيها، التي ضيّعت عليهم الفائدة والمتعة وكانت ستجنّبهم ذهاب أمسيّتهم هباء.

فمن النّاحية النّفسيّة: المبالغة في ردود الفعل إزاء الأشياء الصّغيرة يخلق توتراً لدى الطّفل والبالغ على السّواء. فالانزعاج من أفعال وأقوال الآخر، واتّخاذ مواقف دفاعيّة، كما هو الوضع في القصّة، إذ تساوت ردود أفعالهم المفرطة ودفاعهم عن أنفسهم برفض الحلول المقدّمة ومقاطعة من شرع في قصّ قصّته، وإن كانت الرّغبة في التّعبير عن المشاعر أمراً طيّباً أحياناً، كالانزعاج من أمر ما، لكنّ التضخيم والمبالغة هو ما يفسد الأمور، والمطلوب هو الاجتهاد في إيجاد حلول ترضي كلّ الأطراف، مع التّنازل عن بعض الحقّ، لأنّ المشاكل تبدأ بالتّفاعل الخاطئ أو المبالغ فيه معها، فما وقع فيه الأطفال من مشكلة، كان من السّهل أن يتحوّل إلى "معركة" حقيقيّة، فمع الانزعاج والرفض والإصرار، وغلق الأذان عن سماع الحلول المقترحة يصعد التّوتر، ويرفع من منسوب الغضب، وقد يبلغ مرحلة رفع الأصوات والصّراخ في وجوه بعضهم البعض، ومنه إلى التّصرّف

بعدوانية أكبر، كالضرب باستعمال الأيدي أو أي وسيلة أخرى، وما يصاحبها من سخونة في الوجه وارتفاع ضربات القلب، وحركة غير مضبوطة، مما يضر بالصحة. فردود الأفعال السلبية وثمارها من شأنها أن تحرم الطفل من الشعور بالسعادة والرضا. فعلى الطفل أن يتعلم كيف يتحكم في مشاعره ويوجهها لينعم بالرضا، ويسعد بحب من حوله. وعلى البالغين من الأولياء والأوصياء توجيهه ليصبح أكثر وعياً برودود أفعاله وتبعاتها، وأن يتعلم قبول الرضا والنقد، ويتعامل معهما بعقله لا بعاطفته، وأن يضع في حسابه أنه ليس بالضرورة أن يوافق الجميع رأيه، وألا يرفع من مستوى توقعاته، ويكون مستعداً دائماً بتوقع الشيء وخلافه، حتى يحسن التصرف إذا ساءت الأمور.

3. 3- الشخصيات:

ينطوي المتن على الدلالات والأبعاد ذاتها للعنوان والعلامات البصرية في مجملها، من أسماء الشخصيات إلى الفضاءات الزمانية والمكانية، إلى الأحداث، إلى الحبكة إلى التقنيات الفنية، إذ نجد المسيري منح لشخصيات القصة، وهي نفسها في باقي قصص السلسلة، أسماء عربية فصيحة؛ البنت الكبرى نور، وأخوها الأوسط ياسر وأخوهما الأصغر نديم، والجمل ظريف والدك حسن. وهم عائلة، وكان بإمكانه أن يجعلهم أصدقاء، وتظل القصة كما هي لا يتغير مغزاها ولا أهدافها التربوية، والواقع أن الفرق بين أن يكونوا إخوة وأن يكونوا أصدقاء واسع وفق المنظور الإسلامي، فإن كانوا إخوة فالقصة تؤكد على ضرورة الحفاظ على علاقة الأخوة، والعمل على تعزيزها بالتسامح والتشاور والحوار البناء والاحترام، أما إن كانوا أصدقاء فسترمي إلى غرس فكرة الصداقة بين الجنسين كقيمة اجتماعية محمودة ومطلوبة في ثقافة العصر.

أما صفاتها الجسدية وملامحها في الصور المرافقة لنص القصة، فهي عادية، لا فروق بينها في لون البشرة. يتجلى للتأظر فيها من الوهلة الأولى أنها ملامح طفولية، قليلة التفاصيل، وبريئة من أي إيحاء؛ العيون نقاط سوداء، والشفاة حمراء للذكور والإناث والحيوانات. وإذا توقفنا عند ملامح البنات، على اعتبار الجسد الأنثوي أكثر توظيفاً لتمثيل الأنساق الثقافية والإيديولوجيات، نجد شعر البنت أسود متموجاً، يمنحها ملامح البنت العربية، ويؤكد لها إلى جانب الاسم، فيما نجد شعر الأولاد أحمر أو بني فاتحاً، وكان بإمكانه أن يجعل العكس ويكون أجمل بالنسبة للذكور للطفل العربي العصري، لكن المسيري قلب الأمر، وخالف ما ألفه الطفل العربي في كتب القصص، وحتى في الكتب المدرسية، خاصة كتب القراءة، التي لم تسلم من غزو الثقافة الغربية، وباتت تضج بالأنساق الثقافية، التي تروج لتفوق الفرد الغربي على العربي الشرقي، فالبنات الشقراء ذات العيون الحوراء الزرقاء والجسد المنحوت أيقونة الجمال الأنثوي، كما تعرضه قصص ديزني، نسق عبر من الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية، أما الفتاة ذات الشعر الأسود فأيقونة الفقر والضعف والحزن، وربما الشر أيضاً، فالساحرات كلهن بشعات وشعرهن أسود، فالشقرة يختص بها الفرد الغربي الأميرة/ الأمير الذي يساعد الفقراء والضعفاء أصحاب الوجوه الكالحة، واللامح القريبة من السواد، وباتت السمرة رمز الإنسان العربي

المتخلف والهمجي والبليد؛ أنساق يتشرّبها المتلقّي الصّغير الذي لم يبلور بعد وعيا عن العالم والوجود، فتستقرّ في ذهنه ووجدانه عبر اللاوعي، وتشكّل وعيه وتوجّه خياراته في مراحل العمرية اللاحقة (صايبة، 2023، الصفحات 169-199)، لتصنع تابعا مهزوز الثقة في نفسه، منمّطا يؤمن بفردوس الأنسان الغربي، وهو ما يجتهد المسيري في تقويضه، وتأسيس نموذج إنساني حضاري، وتعزيز الهوية الإسلامية والخصوصية العربية.

أمّا شخصيّة ظريف وحسن من عالم الحيوان، فاختيار مقصود؛ إذ يمثّل الجمل رمزا من رموز الأصالة العربية والحضارة الإسلامية، والدّيك لا يفرق عنه كثيرا، فهو مرتبط بالحياة في الرّيف، والبساطة، يوقظ الناس في الصّباح الباكر، كما أنّه مذكور في عدد من الأحاديث النبويّة، أشهرها "إذا سمعتم صياح الديك فاسألوا الله من فضله؛ فإنّها رأت ملكا" (البخاري، 2003، صفحة 813)، الأوّل يحظى بتقدير عالٍ وتاريخي، ويعدّ أيقونة الصّبر والقدرة على التّكيّف والمقاومة، والبقاء والصّمود أمام أشرس ظروف الطبيعة حرّا وبردا وجوعا وعطشا، ورائد الأسفار الطويلة في أعماق الجبال وبطون الصّحارى، كما يعدّ رمز التّرحال والسّفر والتّجارة في العصور الذهبيّة للحضارة الإسلاميّة. أمّا الثّاني فرمز النّشاط والحيويّة والقيادة، والانضباط، فكلاهما من الحيوانات الأليفة والدّاجنة المحبوبة لدى العرب، ويتفألون بها خيرا، والطفّل العربي يعرفها، والغالب أنّه تعامل معها مباشرة، ولورؤية بالعين كما أنّها ليست عدوانيّة ولا نجسة، بخلاف الحيوانات التي تحضر بقوة في القصص الغربي، كالكلب والأسد والفيل والزّرافة والضفّعد والدّبّ وحيوانات البحر وغيرها ممّا لا يمكن تحقّقه في الواقع، فيظلّ عالم القصّة منفصلا عن الواقع، فالدّبّ على سبيل المثال؛ شائع في القصص وأفلام الكرتون والألعاب؛ يمثّل أحد "رموز الحضارة الغربيّة.. حيوان لا نعرفه ولا يوجد في بيئتنا، ومن ثمّ؛ فالعلاقة معه والتعلّق به يولّد إحساسا بالاعتراب لدى الطّفّل العربي" (المسيري ع، رحلي الفكريّة في البذور والجنود والثمر، 2000، صفحة 518)، فالمسيري اختار شخصيّاته بوعي نخبوي، والواقع أنّه جلبها من حياته الخاصّة إلى العالم الخيالي للأطفال، وهو يصحّح بأنّ أبطال القصص "ثلاث شخصيّات: نور ابنتي، وياسر ابني، وانضمّ لهما نديم حفيدي، وهناك أيضا الدّيك حسن، الذي يؤدّن.. ولكنّ الشّخصيّة الأساسيّة هي الجمل ظريف، وهو جمل إنساني أخ أولادي" (المسيري ع، صفحة 519)، فظريف هو المرّي والموجّه غير المباشر في القصّة؛ أيقونة للثقافة العربيّة الإسلاميّة الأصيلة.

3 . 4- المكان والزّمان:

اختار المسيري فضاء المدينة المعاصر، دون أن يفصله عن ملامح الرّيف وهدوئه؛ لجميع قصص السّلسلة، التي "تدور أحداثها بشكل أسطوري ولكن في العالم الحديث" (المسيري ع،، صفحة 524)، بيت بسيط، فيه سطح، وله حديقة فيها أشجار ونباتات، وقد تحدّدت معالم الفضاء المكاني من المشهد الأوّل، بيت بملاح عربيّة، يحفظ خصوصيّة العائلة، وليس شقّة من عمارة، فقد "كانوا جالسين على سطح المنزل، وكان الدّيك حسن يقف على السّور ناظرا إلى البرج العالي، الذي ارتفع في السّماء، ومن خلفه قمم الجبال التي

بدأت الشمس تغور من وراءها" (المسيري ع.، معركة.. كبيرة.... صغيرة، 1999، صفحة 5)؛ الأبراج العالية رمز المدينة حاضرة، والجبال من خلفها، والديك على سور المنزل، ومغرب الشمس، فضاء مكاني مركب بين أجمل ما المدينة والريف، لخلق جو نفسي مريح للمتلقّي الصغير، بحذف ما يعدّ عيباً في المدينة ومنقصة في القرية، فضاء مركب يحثّ خيال الطفل، فتتكوّن لديه فكرة أنّه ليس بالضرورة أن يوجد ريف ومدينة، وفق الثنائية الضدية التي أفرزتها الحداثة وما بعدها. فوجود مكان يجمع بينهما أمر ممكن، يقوّض فكرة أفضلية المدينة ومركزيتها على دونية الريف وهامشيته في ذهنه، عبر مخاطبة لوعيه. كما أنّ اختيار وقت ما بعد العصر إلى مغيب الشمس على سطح البيت، شاعري، ومناسب للقصص واللعب عموماً، فهو وقت استراحة بعد انتهاء دوام المدرسة.

وإن كان المسيري ينفي وجود شخصيته في قصصه؛ لكنّه تقمّص شخصية الديك حسن التأمل في الحياة، وقد أرهقته الفرقة والاختلاف المتصاعد، الذي يمضي بالوضع إلى الأسوأ، ويقتضي إعلان حالة طوارئ، وإيجاد حلول للواقع المتردّي والمرير للعالم العربي والمجتمع الإنساني في عمومه. المسيري المتأمل، ثمّ المسيري المحلّل والمفكّك بحثاً عن حل، ثمّ المسيري الذي يعود تكراراً إلى التأمل "فتعب الديك حسن وجلس يفكر وينظر إلى السماء" (المسيري ع.، صفحة 9)، وضع عالم الصغار جزء لا ينفصل عن عالم الكبار، وأطفال اليوم رجال الغد، وهو مردّ اهتمام المسيري بأدب الطفل. لكن هل كان تركيزه على وصف الديك وهو يتأمل البرج العالي الذي ارتفع في السماء، ومن خلفه قمم الجبال، عفوية؟ لماذا لم يأت على وصف الطريق المعبد وسط المدينة، الغاصّ بالسيارات وضجيجها، مع أنّ وقت المساء مناسب؛ وقت عودة العمّال والموظّفين والمتدريسين إلى منازلهم، وهو أكثر ما يميّز المدينة عن الريف؟ ولماذا لم يأت على وصف العصافير أو الوادي أو الحقل الأخضر من ملامح الريف، حي الطبيعة ما تزال تحتفظ ببعض عذريتها، ولم تطلها يد البشر بالتشويه؟ اختيار البرج العالي وقمم الجبال ليس اعتباطياً، فالعمارة هي الملمح الأكثر تمثيلاً للحضارة، ويعكس قوتها، والأبراج هي أكثر نماذج العمران المعاصر حضوراً في الدّول المتقدمة، كأنّه معيار للتّقدّم التقنيّ والحضاري، ومنه مستوى ما بلغه الفكر الإنساني، لكنّ البرج في القصة يأتي حقيراً، لا رهبة له أمام قمم الجبال الشامخة من خلفه منذ آلاف السنين، وربّما استدعى المشهد في نفس الطفل لحظة القراءة أو في أزمنة لاحقة الآية الكريمة "وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا" (الإسراء: 37)، فمهما سعى الإنسان إلى تحقيق فردوسه الأرضي (2*)، بالذهاب في السماء بأبراجه والتزول في الأرض بأنفاقه، فإنّه لن يضاهي عظمة الخالق، ولا سبيل إلى الفضيلة والأفضلية إلّا بتحقيق إنسانيّتنا، التي تقوم على ركيزة "التّواضع"، وهي رأس مكارم الأخلاق، ألم يقل رسولنا الكريم أنّه بعث ليتمّم مكارم الأخلاق؟!، ألم تكن خطيئة إبليس التي أخرجته من الجنّة هي "الكبر"؟!، مشهد يجعل الطفل يدرك بشكل فطريّ دون إدراك نظريّ ما وراء المشهد من معان.

بخلاف المؤلف عن سرد القصص عند النوم؛ المسيري اختار آخر المساء "إذ بدأ المساء يخيم على الأرض، وبدأت النجوم تطل برؤوسها الصغيرة" (المسيري ع.، صفحة 13)، وهو وقت المغرب الذي نهانا الرسول ﷺ عن ترك الأطفال في الخارج "إذا كان جنح الليل أو أمسيتم فكفوا صبيانكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذ" (البخاري، 2003، صفحة 813)، ثم ناموا في الوقت المستحب للنوم "وبعد العشاء جلس الأطفال فوق أرض الغرفة متعبين... عليهم سلطان النوم فناموا جميعاً" (المسيري ع.، معركة.. كبيرة.... صغيرة، 1999، صفحة 14)، فالدين ينهى عن السمر بعد العشاء، والأزمة محدّدة بعناية، وتوزّعت عليها الأحداث بإحكام، فلا شيء يفلت من قبضة القصد لدى المسيري، في سبيل زرع الفضيلة في الطفل.

3. 5- ما وراء أسلوب التشويق :

عمد المسيري إلى تشويق الطفل لقراءة القصة دون تتمتها، ويظلّ كذلك يشوّقه ثم يتوقّف، ليشرع في قصة جديدة تبعث الأمل من جديد في نفسه ثم تخيبه، حتّى يصل به إلى النهاية المفتوحة على نحو غير معلن؛ تجسيدا لمدى قبح وسوء عادة مقاطعة حديث الآخرين، ودمامة الأنانية، وجعل الطفل يكرهها حتّى لو كان هو نفسه أنانيًا، لأنّ الحبكة تلعب على الوتر الحساس له، وجسّدت فعل المقاطعة، فما إن يباشر الذي أخذ الكلمة في حكي قصّته، حتّى يقاطعه غيره، فأخذ الجمل ظريف يحكي قصّته دون إذن منهم، حين رأى لا أمل في الاتفاق "كان هناك ولد كبير يجلس تحت شجرة كبيرة ... فقاطعته نور: وهل هذه قصة أم نشرة أخبار... استمعوا لقصّتي الرائعة: كان هناك ولد صغير يجلس تحت شجرة صغيرة.. قاطعها ياسر قائلا: مثل غمضة العين وعضة الكلب، هل هذه قصة أم لغز؟ استمعوا من فضلكم لقصّتي أنا شخصيًا: كان هناك ولد متوسّط الحجم يجلس تحت شجرة متوسّطة... قاطعه نور وظريف قائلين: أهذه قصة أم مأساة؟" (المسيري ع.، صفحة 12/11/10)، ما من شأنه إثارة غضب القارئ الصغير، لأنّه سيرغب في الاطلاع على باقي القصة، ثمّ يتجدّد أمله في سماع الأخرى كاملة فيقاطعه آخر مرّة أخرى، ويتجدّد في نفسه طعم المرارة والانزعاج من هذا الفعل المقيت، وربّما توسّلهم في نفسه أن يتركوه يكمل قصّته، وحينها سيمثل في وجدانه وذهنه فضيلة احترام الغير، والحوار وضرورة إيجاد الحلول للمشكلات، وليس بالضرورة أن تخدم المصلحة الخاصة، لأنّه في كثير ما يستحيل وجود الحل المرضي لجميع الأطراف، وأنّه ينبغي النّظر إلى الهدف من وراء الفعل، وليس الفعل في حدّ ذاته. وسيشعر بالحزن والحسرة حين يدرك أنّه لن يتمكّن أيّا من الأبطال من إتمام قصّته، لأنّهم غضبوا (الشكل 2)، واتّخذ بعضهم موقفًا دفاعيًا مثل نور أو صمّ الأذان عن سماع الحل، مثل ياسر، أو إشاحة الوجه عن الجميع، كما فعل ظريف، ولم يتنازل أحد عن موقفه، ويصيبه اليأس حين يقرأ "ظلّ الأطفال يتناقشون، كلّ منهم يؤكّد أنّ قصّته هي الأجمل لو أتيحت له الفرصة لأن يحكيها حتّى نهايتها" (المسيري ع.، صفحة 13)، وبقدر ما شعر به من سوء، سيكون مقدار تخلّصه من أنانيّته، وإدراك مدى عظمة فضيلة التفاهم واحترام الآخر، ومدى سوء ثمرة النقاش والجدل العقيم، كما ذهب إليه أرسطو في نظريّة التّطهير.



الشكل (2) أبطال قصة معركة... كبيرة... صغيرة

فلثمرة المقاطعة على النحو الذي قدّمه بها المسيري أثر نفسيّ تربويّ، من جهة، ومن جهة أخرى هي استثارة لملكة الإبداع وتنمية الخيال في الطّفل لـ"أنّ القيمة الكبرى لهذه القصص هي تشجيع الخيال، وأنا أذهب إلى أنّ تشجيع الخيال هو تشجيع للعقل الإنساني على أن يفكر ويبدع" (المسيري ع..، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، 2000، صفحة 525)، وهي قيمة إنسانية تنمو شيئاً فشيئاً لدى الطّفل، تؤتي أكلها بعد حين، فهو في كلّ مرّة يقرأ بداية القصّة ولا يمكنه قراءة بقيّتها، وبقدر قوّة البداية المعطاة تكون القوّة الدّافعة إلى تخيل التّمتّة، بما لديه من مادّة خام، وإعادة تشكيلها إلى أحداث، وربّما جعل للقصّة الواحدة أكثر من تمتّة ونهاية، بمتحه من خبراته الصّغيرة والبسيطة، والواقع من حوله؛ البيت والأسرة والشّارع والمدرسة والأماكن العامّة والخاصّة التي زارها من حدائق نباتيّة وحيوانيّة وعمرانيّة، وتجاربها فيها، إلى الحكايات والأساطير التي سبق واطّلع عليها وغيرها، وبذلك يتخلّص من التّبعيّة للقصّة ومعطياتها، والتّعامل معها على أنّها حقيقة عليه أن يلتزم بها، "فالإنسان الذي يعيش في عالم الحقائق الماديّة الواقعيّة وحسب، يعيش في عالم صلب يميّز الوجدان والشّعور، ويجعل الإنسان شخصيّة متزمنة رجعيّة تدور في إطار ما هو موجود بالفعل، بدلا من أن يحاول تجاوزه وتغييره" (المسيري ع..، صفحة 525)، فالقصّة بالنّسبة للطّفل عالم ساحر، يدخله ويتفاعل معه، ويدرّبه على التّعامل مع العالم الواقع. فاكتمل القدر على القصّ "هوالتّعبير عن الإرادة الإنسانيّة، فالتّحكّم في النّهايات وتغييرها... هي دليل على مقدرة الإنسان على التّحكّم في مدار الأحداث وعلى تغيير الواقع" (المسيري ع..، صفحة 525)، وهو ما يمثّل البعد الـيوتوبي للقصّة على مستوى الفكر والوجدان.

إنّ ما يرمي إليه المسيري في هذه القصّة وغيرها من قصص السّلسلة هو تعليم الطّفل كيف تولد القصّة وتتطوّر، والاحتمالات اللّانهائيّة للتّنويعات، ففائدتها لا تقف عند إعطائه قصّة؛ أي "ثمرة الفكر، وإنّما طريقة القصص، التي تؤدّي إلى الثّمرة، والطّفل بهذه الطّريقة يحقّق قدرا كبيرا من الاستقلال عن القصّة وعمّن يقصّها عليه، كما يتعلّم حريّة الإرادة ويدرك أنّ الواقع يمكن تغييره" (المسيري ع..، صفحة 525)، بعدد هائل من الخيارات، والفكرة تتلخّص في المقولة الشّهيرة "لا تعطني سمكة، ولكن علّمني كيف أصطاد".

3. 6- تعيين وتحديث السرد الكلاسيكي:

على الرغم من الفنيات السردية التي اعتمدها المسيري، لإخراج قصصه في قالب عصري، إلا أنه حافظ على أهم سميتين، ماضوية الأحداث، والطبيعية العجائبية للقصّة. فعلى غرار السرد الكلاسيكي الموجه للأطفال؛ تبدأ القصّة بالفعل الماضي الناقص "كان"، من العبارة الافتتاحية الشهيرة "كان ياماكان في قديم العصور والأوان"، احتفظ بالفعل والبؤري في عملية السرد، وحذف باقي العبارة، تحقيقاً للانسجام الدلالي، على نحو عام؛ مع عنوان السلسلة "حكايات هذا الزمان"، التي تحدّد زمن حدوث القصّة بهذا الزمان، وليس في غابر الأزمان، وعلى نحو خاص؛ مع مضمون القصّة وفضاءاتها المكانية ذات الملامح العصرية، والمؤلفة بين ثنائية الريف والمدينة، كافتتاحية أول قصّة من السلسلة، واصفاً نور التي تقيم مع عائلتها في المدينة لكنها "كانت -نور- جالسة على شجرة البرتقال" (المسيري ع، معركة.. كبيرة.... صغيرة، 1999، صفحة 4)، بخلاف الفضاءات الكلاسيكية المحصورة في القصر والكوخ والغابة والبحر، إذ "يجد الطفل في عصرنا الحديث، نفسه غير قادر على دخول عالم الأسطورة التقليدية بسهولة ويسر، فكل شيء فيها عتيق.. هي نتاج عصور تاريخية لم يكن فيها الإنسان سيّد بيئته.. ممّا يفقدها كثيراً من أهميّتها وفعاليتها في العصر الحديث" (المسيري ع، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، 2000، صفحة 524)، فردما لهذه الهوة الاجتماعية والنفسية والتاريخية والفكرية، أثّث المسيري فضاءات منسجمة مع واقع الطفل العربي، بل وجعله يتفاعل معها فكراً ووجداناً وخيالاً.

أمّا عنصر العجائبية فله بصمة المسيري الخاصة، فقد تمكّن من ابتكار عالم أسطوري، بعضه يجمع بين الماضي السحيق والحاضر التقني، وبعضه الآخر مبتكر، حيث يحضر الحيوان ناطقاً وعاقلاً ومشاركاً، كما استطاع توظيف أساطير وطورها، أو بالأحرى أعاد إخراجها، وتجريدها من أنساقها، ومنحها أبعاد إنسانية محضة، لا تلفت انتباه الأطفال فحسب، وإنّما تدعو حتّى الكبار إلى تأملها، ورصد الرؤية الفلسفية والإبداعية التي تضمّنتها، ومقارنة نسخها القديمة بنسخها الجديدة، كقصّة نور والذئب المكار، التي متحت من قصّة ذات الرداء الأحمر، وبياض الثلج التي لم تستطع المشي في فردة حذاء واحدة، وركبت الحافلة، وغيرها من القصص التي تراكبت فيما بينها بالحذف والإضافة والاستبدال، وخرجت في حلّة عصرية إنسانية جديدة. أمّا قصّة "معركة.. كبيرة.... صغيرة" فهي من القصص العقابية، لشخصيات القصّة، فلم يستمتعوا بسماع قصص بعضهم البعض، ولم ينالوا غير الإرهاق العصبي، تضيق الهدف من وسيلة التسلية المقترحة.

تناولت قصّة "معركة.. كبيرة.... صغيرة" صفة العند/العناد في الإنسان، والتي لا يمكنه التملّص منها، فهي من ملامح الشرّ أحياناً، وأحياناً أخرى من ضرورات الخير، لأنّه على الإنسان أن يكون عنيداً ومصرّاً ولا يتنازل في بعض المقامات، وتنازله يعني ميله إلى الشرّ، فهو وليد الأنانية ومن طبيعة البشر، وعلى الطفل/الإنسان أن يعرف متى العند يكون مطلوباً وخيراً، ومتى يكون مذموماً ومن أبواب الشرّ، فالقصّة مدوّنة الدراسة وباقي

القصص تناولت "قضية الشرّ الإنساني والأنايية، بطريقة مخففة، وكيف أنّ العناد من طبيعتنا... لكن لا نستسلم له، ولذا فالأطفال يرهقون من عنادهم، بل ويعاقبون عليه، فأحداث القصة ذاتها هي عقاب لهم" (المسيري ع.، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، 2000، صفحة 526)، فمن جهة؛ القصة نقلت فكرة وجود الشرّ في النفس، بطريقة تناسب مستوى إدراكه، فلا يظنّ أنّ العالم خير كلّ، فيصدم بحجم الشرّ فيه، ومن جهة أخرى، طبيعة العند والأنايية التي استسلم لها أبطال القصة، جعلتهم يتعاملون مع الأمور بفوضى، فيما كلّ الأشياء في الكون تسير وفق النظام والقانون، لكن على الطّفل/الإنسان أن يكون صارما في تعاملاته، قد يخرق القانون أحيانا، كما فعل الجمل ظريف الذي أخذ يحكي قصّته دون استئذان، طمعا في إخماد الجدل بينهم، لكن "لا بدّ أن نعود لعالم القانون والنظام، أي أنّ القصة لا تنكر الفوضى ولكن تضع حدودا لها" (المسيري ع.، صفحة 526)، لأنّ خرق النظام في الأمور الصّغيرة يتراكم ليصبح خرقا للأمور الكبيرة.

كان المسيري قد حصل على جائزة سوزان مبارك الأولى، في أدب الأطفال سنة 1999، ويقول "سعدت بها كثيرا لا لأنّها تشجّعني على الاستمرار في الكتابة للطفّل، وإنّما لأنّها تخرجني من الجيتو الصّهيوني، وتنبّه قرائي أنّ هناك فكرا وراء ما أكتب، وليس مجرد حشد للمعلومات" (المسيري ع.، صفحة 526)، كما هي حال القصص التجاريّة اليوم، فقد كانت الكتابة للطفّل بالنسبة للمسيري عالما رحبا شقافا بريئا، يفكّ أسرته من الإقامة الجبريّة التي تفرضها عليه الكتابة في عوالم الشرّ والفساد والمكائد والمكر والخبث لليهود واليهوديّة والصّهيونيّة والعلمانيّة والحداثيّة وما بعد الحداثيّة، لأنّ كتابة الموسوعة تزامنت مع كتابة سلسلة "حكايات هذا الزّمان" منذ سنة 1970، فعلى تباين طبيعة العالمين يظلّ المسيري واحدا، بفكره ووجدانه ومشاعره، ورؤاه وهواجسه يفكّك ويحلّل ويفسّر ويركّب، فما كان يجده من سواد في العالم الواقع؛ يحوّله إلى بياض في عالم الخيال، وما يتوصّل إليه من أسباب إهيار الإنسان، وفقده لفضيلة الأخلاق والقيم والإنسانيّة، يجتهد في إعادة بعث ما مات منها وتنميتها وترميم المعطوب، ومن ثمّ ترسيخها في نفس وعقل الطّفل العربي المسلم.

فما كتبه المسيري في الفكر والفلسفة تأسيسا لمشروعه الحضاري، لا يختلف عمّا كتبه للطفّل، إلّا في طبيعة اللّغة والمصطلح، بالأفكار ذاتها، حسب تصريحه "حينما أنظر للقصص التي كتبتها، أجد أنّها تعبّر عن نفس الأفكار والرّؤى التي توجد في أعمال أخرى بما في ذلك الموسوعة" (المسيري ع.، صفحة 523)، فأهمّ ما تكشف عنه قصّة "معركة.. كبيرة... صغيرة" وتشتبك فيه مع بقيّة قصص السّلسلة، بمثابة الخيط النّازم لها، هو التّأسيس لنموذج معرفيّ يعدّ "الأداة الأساسيّة في عمليّتي الإدراك والتّحليل... كامن وراء كلّ القصص، وهو نفس النموذج الكامن وراء الموسوعة من رفض للموضوعيّة المتلقّيّة والنّصوصيّة البلهاء، والمعلوماتيّة الفجّة والسّببيّة الصّلبة... إلى الإيمان بالعقل التّوليدي والسّببيّة الفضفاضة، والنّمادج المفتوحة وبالحيز الإنساني" (المسيري ع.، صفحة 523)، الذي يحقّق فيه جوهره، وهو إنسانيّته، وهو مختلف عن العالم الطّبيعيّ المادي، الذي لا يمكن إلغاؤه، لأنّه الفضاء الذي تتحقّق فيه الإنسانيّة، إذ نلّف المسيري يجمع بين الإنسان والحيوان، في فضاء واحد، وذلك جانب من الإنسانيّة، كما يجمع بين الخير والشرّ كصفة

قارة في البشر، معالحفاظ على القيمة ومبدأ المعيارية في الحياة، لتأهيل الطّفل لمواجهة حقيقة الواقع من حوله والعالم.

4 - خاتمة:

ما كتبه المسيري للأطفال من أدب وهو يؤسّس مشروعه الحضاري تفعيلاً لمفهوم الهوية والخصوصية العربية والإسلامية، لإيمانه بأهمية الطّفل طرفاً فاعلاً في العملية الحضارية، وصناعة التاريخ، فهو اللبنة الأساس لقاعدة كفيفة بحمل ثقل الهرم، موظفاً القصّة من فنون الأدب الطّفولي، التي تقوم مقام الرواية في الأدب العام، غير أنّ القصّة لا تعالج غير قضية واحدة، بشخصيات قليلة، وحبكة بسيطة، تحترم طبيعة وعي القارئ الصّغير، لكن بصراع يضطره إلى أن يكون طرفاً فيه؛ مراقباً حتّى يدرك الأمور على حقيقتها، ويقف على أسبابها ويحلّها. فقد عمد المسيري إلى تأسيس نماذج معرفية من خلال فنيات القصّ الكلاسيكية التي حيّتها والتي ابتكرها؛ تكسب الطّفل قدرات عقلية أوسع وتنمّيها، بالتركيز الشّديد على الإنسانية رأس الفضائل، وجوهر الإنسان؛ الفارق الأساس بينه وبين الحيوان، ومن خلاله يتجلى البعد اليوتوبي في قصص المسيري، الذي لا يرى بإمكانية تحقق الفردس على الأرض إلّا بقدرنسي، وأنّ الفردوس الحقيقي في الآخرة.

استهدف المسيري الطّفل؛ لأنّه البذرة الأولى للإنسانية، ما يزال على الفطرة والنّقاء، ويصرّح بذلك: "أنا أحبّ عالم الأطفال... فهو عالم مليئ بالجمال والدّهشة والبراءة، عالم يمكن أن يحقق فيه الإنسان إنسانيّته"، أدب عظيم ونبيل" (المسيري ع..، صفحة 518)، لكنّه لا يمكنه إقناعه برؤاه في شكلها المعقّد، فلجأ إلى السّرد ملاذاً حين يستعصي التّنظير، مرشداً وموجّهاً، دون المباشرة أو حتّى التّبسيط، وإنّما التّخفيف، فلم يختزل العالم في شقّه الخير، وإنّما عرضه على حقيقته مركّباً من الخير والشرّ، ليدفع عنه الشّعور بالاغتراب والصّدمة، ويدفع به إلى التّفكير والتّحليل وإصدار حكمه القيمي، والتّصرّف الحرّ من خلال التّموج القصصي المتحرّر من القصّة والقاص، دون قيد أو فرض، حتّى لا يكون إمعة أو خاضعاً، ويكتشف القيم الكامنة من وراء القصّة، ويؤمن بها، فالغاية الأولى من قصص المسيري ليست الأسطورة والعجائبي والتسلية، وإنّما صناعة إنسان سويّ النّفس، قويّ الشّخصية، حاضر الإنسانية، ليكون فرداً صالحاً؛ أيّاً كان موقعه وما يمليه عليه من مهام، سيؤدّيها على أكمل وجه بوصفه إنساناً مسلماً.

- ملحق الإحالات:

(1*) الرسومات من إنجاز الرّسامة صفاء نبعة لدار الشّروق، ومع ذلك تعاملنا مع العلامات البصرية على أنّها من المؤلّف، لأنّه قبل الطّبع يتمّ التّواصل بين منجز الغلاف والمؤلّف، ولا يتم اعتماد الشّكل الأخير إلّا بموافقة، والمسيري شديد الحرص على مثل هذه التّفاصيل في حياته الخاصّة، مع أطفاله، فكيف هو مع عمل سيخرج للأطفال العالم العربي أجمع، كما أنّنا اطّلعتنا على رسومات للرّسامة نفسها في قصص أخرى لمؤلّفين آخرين، وهي تختلف كليّاً عنها في قصص المسيري، تأكيد على ما ذهبنا إليه.

(2*) الفردوس الأرضي: دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية: كتاب لعبد الوهّاب المسيري صدر في أفريل من سنة 1979م، يتأمل فيه الحضارة الغربية المادية من خلال عقد مقارنة بين أمريكا وإسرائيل، وإقامة الفردوس في الأرض، الآن وهنا، حيث انسلخ الإنسان عن إنسانيته واكتفى بحيوانيته، وأصبح التّقدّم والعلم هدفا في حدّ ذاته، لا وسيلة لسعادته.

- المراجع:

*. مصحف المدينة النبوية، برواية ورش عن الإمام نافع، مجمّع الملك فهد للطباعة والتوزيع، المدينة المنورة، 1428هـ.

- آلان وباربرا بيزز. (2008). المرجع الأكيد في لغة الجسد. الرياض: مكتبة جرير.
- أحمد علي الهمداني. (2013). معجم الأمثال اليمانية الشائعة. عدن: دار جامعة عدن 182.
- أحمد مختار عمر. (2008). معجم اللغة العربية المعاصرة. القاهرة: عالم الكتب.
- أحمد الهاشمي. (2012). ديوان الإنشاء. بيروت: دار المعرفة للطباعة.
- إيمان صالح مطر. (2020). رسوم أطفالك دليلك إلى عالم طفلك. مصر: ريد READ بابليشر.
- جميل صليبا. (1982). المعجم الفلسفي. بيروت: دار الكتاب اللبناني.
- سعاد صايبه. (2023). النصّ البصري الموازي للنصّ الأدبي في الكتاب المدرسي. مجلّة جماليّات، جامعة عبد الحميد بن باديس-مستغانم، المجلّد: 10، العدد: 01، 169-199.
- عبد الرحمن الهاشمي. (2009). أدب الطفل (فلسفته، أنواعه، تدريسه). الأردن: دار زهران للنشر والتوزيع.
- عبد الوهّاب المسيري. (2000). رحلتني الفكرية في البذور والجذور والثمر. القاهرة: شركة الأمل للطباعة والنشر.
- عبد الوهّاب المسيري. (1999). معركة.. كبيرة... صغيرة. القاهرة: دار الشروق.
- عبد الوهّاب المسيري. (1999). موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. القاهرة: دار الشروق.
- عبد الوهّاب المسيري. (1972). نهاية التاريخ: مقدّمة لدراسة الفكر الصهيوني. القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية.
- عمر الأسعد. (2013). أدب الأطفال. عمان: مؤسسة الورّاق للنشر والتوزيع، عمان/الأردن.
- مجدي وهبة، و كامل المهندس. (1984). معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. بيروت: مكتبة لبنان.
- محمد بن إسماعيل البخاري. (2003). صحيح البخاري. بيروت/دشق: دار ابن كثير.
- ممدوح الشيخ. (2017). عبد الوهّاب المسيري من المادية إلى الإنسانية الإسلامية. ط1، بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

صايبه سعاد، حنيش ربيعة، (2024)، الأبعاد اليوتوبية في كتابات عبد الوهّاب المسيري للطفل- قراءة تأويلية -، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، المجلد 15 (العدد 2)، الجزائر: جامعة زيان عاشور الجلفة، ص.ص 51-72.